المحاضرة الحادية عشر: الشعر الفلسفي وشعر الحكمة.

مراجع المحاضرة:

- هلال الجهاد: فلسفة الشعر الجاهلي. دراسة تحليلية في حركية الوعي الشعري العربي.
- طارق زيناي: تجليات النزعة الفلسفية في الشعر العربي القديم.
- عبد الله التطاوي: حركة الشعر بين الفلسفة والتاريخ.
- شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعرالأموي.
- سعاد ترشاق: محاضرات النص الأدبي القديم.
- بوزيزة علي: النزعة الفلسفية في الشعر العباسي " العصر الثاني " ، أطروحة دكتوراه في الأدب العربي.
- سراج الدين محمد: الحكمة في الشعر العربي.
- شلوف حسين: شعر الحكمة عند المتنبي بين النزعة العقلية والمتطلبات الفنية، ماجستير

الشعر والفلسفية: لا ريب أن الحديث عن اقتران الشعر بالفلسفة كمصدرين رئيسيين للوعي يثير تساؤلات كثيرة، خاصة عند أولئك الذين يرون أنّ الشعر والفلسفة لا يجمعهما جامع. مادامت الفلسفة تمثل التعبير الأكمل عن الجهد العقلي المنظّم الذي لا يتعامل إلّا مع الحقائق، ولا يعنى سوى باليقين، ولا يستخدم إلا البراهين. أما الشعر فلا يمثل سوى تهويمات خيال، ومشاعر غامضة.

إلا أن هذه المزاعم قد تتلاشى إذا أمعنّا النّظر في منبع كل من الفلسفة والشعر، وفي ذلك يقول أفلاطون: " إن منبع الفلسفة هو الدهشة " ولا شكّ أنّ الدّهشة هي المنبع الأصيل لكلّ شعر حقيقي.

وقد انتبه أرسطو إلى الطّاقة الكامنة في الشعر حين قال: " إنّ الشّعر أكثر تفلسفا من التّاريخ وأهمّ لأنّ الشّاعر يتعامل مع الكليّات"

ويرى كولوردج أنّ الشاعر فيلسوف على نحو غير صريح. كما اعتبر هيدغر الشعر نوعا من المعرفة الفلسفية، ولكنه نوع أعمق من المعرفة التي يحصل عليها الفيلسوف بواسطة عقله " لأن

الشاعر يقول ما هو مقدّس أي ما هو أصل الطبيعة، أما رجل ما وراء الطبيعة فإنه يكتفي باكتشاف معنى ما قال الشاعر"

فإذا كان هذا ينطبق على الموروث الشعريّ عند الغرب، فهل يحوي شعرنا العربيّ فكرا فلسفيا؟

العقل العربي وعلاقته بالفلسفة: استطاع العقل العربي أن يستوعب أنماط التفكير التي طرأت عليه، ولعل أواخر العصر الأموي والعصر العباسي يعدان من أغنى العصور في كل المجالات؛ اللغوية والأدبية والعقلية والشرعية، وقد انعكست أنماط التفكير المختلفة على الشعر، فظهرت ملامح جديدة فيه لم يكن للعرب سابق معرفة بها، وذلك بتأثير من النزعة الكلامية والفلسفية، فأضحى الشعر يناقش مسائل فلسفية بتأثير من الثقافات الأجنبية الوافدة.

ملامح التفكير الفلسفي عند العرب: إن المتأمل في العصر الجاهلي، يمكن أن يلحظ فيه ملامح تفكير فلسفي أولي، ويظهر ذلك جليا في انشغال الإنسان العربي بانعكاسات العالم من حوله على نفسه، سواء أكان العالم الجغرافي ممثلا في الصحراء بمخاوفها ومصاعبها ومشاقها، أم الجبال بطبيعتها القاسية العنيفة، أم العلاقات البشرية المحكومة بشريعة الغزو في معظم الأحيان، أم بذلك المجهول الذي يداعب مخيلة الشاعر فلا يعرف عنه شيئا، إلا أن يحاول البحث وأن يسجل لنفسه إزاءه موقفا.

أما ثنائية الموت والحياة، فقد كان لها النصيب الأوفر في تفكير الإنسان العربي، الذي ظل في شعره يقدم لها تأملات وتصورات تتراوح بين التخمين والتفكير الجاد. ويتجلى ذلك في وقوف الشاعر على الأطلال، حيث تختلط في نفسه مشاعر الأمل والألم والضياع والخلاص.

وبمجيء الدين الجديد، لعب الإسلام الدور البارز في خروج العرب من طور التفكير الساذج والبسيط، إلى مرحلة جديدة في التفكير، وجد فيها العربي إجابات لكل ما أرَّقه من أسئلة في العصر الجاهلي.

ثم ما لبث العقل العربي أن عرف مرحلة جديدة من التفكير العقلي والفلسفي بعد استيعاب الوافد الأجنبي بعد الفتوحات الأجنبية، وانفتاحه على فعل الترجمة حيث أَخَذَتْ سيول الثقافات الأجنبية

التي كانت مبثوثة في العراق والشام ومصر تنحدر إلى مجرى النهر العربي، وتحدث تطورا هائلا في حياة العرب العقلية.

وفيما يخص اهتمام الشعراء بالمعاني الفلسفية، فإن ذلك يتضح جليا في المعاني العقلية والتشبيهات المستقاة من الحوارات العلمية، خاصة مع ظهور الفرق الكلامية ذات الطابع العقلي المتأثر بالدرس الفلسفي اليوناني، والحكمة الهندية والفارسية.

ومن الشعراء الذين نسجوا شعرهم متأثرين بذلك الجدل الفكري والفلسفي؛ ابن الرومي، المتنبي، أبو العلاء المعري...

ومن أمثلة الشعر الفلسفي قول أحد الشعراء معتمدا التقسيم الفلسفي:

وفي أرْبَع منِّي خلت منك أربعٌ فما أنا دارٍ أيُّها هاج لي كرْبي

أَوَجهك في عيني أم الرِّيق في فمي أم النطق في سمعي أم الحب في قلبي

فلما سمع يعقوب بن إسحاق الكندي هذا الشعر قال: هذا تقسيم فلسفي.

كما روي عن الشاعر بشار بن برد أبياتا تحمل محتوى كلاميا، هو رجع الصدى لما كان يدور في حلق ومجالس العلم آنذاك؛ وهي مسألة الجبر والاختيار التي ناقشتها الفرق الكلامية، ولم يكن الشاعر بمنأى عن ذلك الجدل الدائر، فراح بدوره يناقش هذه المسألة العقدية الفلسفية.يقول بشار:

خُلِقت على ما فِيَّ غير مخيّر ولو أنّني خُيِّرت كنت المهذّبا

أريد فلا يُقضى ويُقضى ولم أُرِدْ ويَقْصُرُ علمي أن أنال المغيَّبا

وأُصْرف عن قصدي وإنِّي لمبصر وأَضحى وما قضَّيتُ إلا تعجُّبا

وهذه بعض الأمثلة القليلة من ذلك الشعر الفلسفي الغزير الذي عرف به شعراء العصر العباسي، الذين تفاوتوا في تكييف شعرهم للمعطى والمعاني الفلسفية، فمن الشعراء من كان يأخذ باليسير من تلك المعاني، ومنهم من كان يغرق في الأخذ منها، والتشبع بها.

مفهوم الشعر الفلسفي: هو الشعر الخاضع للفكرة الفلسفية المحضة، وهو شعر يغور في حقائق الأشياء، والمعاني، والأفكار، فيصل بذلك إلى أبعد عمق فيها، بما يحوزه الشاعر من ملكات عقلية في توليد المعاني واستقصائها، ودقة التحليلات والتقسيمات...

أبو العلاء المعري فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة: اختلف الشعراء حول شخص المعري هل هو شاعر أم فيلسوف أم كلاهما معا؟

وقد أنكر البعض شاعريته بحجة أنه تصدى في شعره للمسائل العقلية، ولم يجعل العاطفة والشعور عماد شعره، كما أنكر البعض الآخر فلسفته، لأنه لم يؤلف نظرية فلسفية متكاملة، ومرتبة ترتيبا منطقيا منهجيا، لها مقدمات وقضايا ونتائج.

ناقش شعر المعري مسائل من عمق التفكير الفلسفي؛ فنظر إلى المسائل الخلقية وحللها، وإلى المجتمع فتحرى مفاسده، ورسم خطوط إصلاحه، وبحث في الدين فبين رأيه فيه وفي رجاله، وأمعن النظر في الأمور الغيبية؛ فأبدى رأيه في واجب الوجود وفي النبوءات وفي المعجزات، وفي البعث والنّشور، وفي الروح...وما شاكل ذلك من المسائل الميتافيزيقية.

شعر الحكمة: الحكمة قديمة عند الإنسان، وحكم العرب هي نظرات وخبرات صادرة عن تجاربهم التي عاشوها، فكانت الحكمة عندهم تصويرا صادقا لفطرتهم

الحكمة لغة: اشتقت لفظة الحكمة من المادة اللغوية (ح ك م) وورد من هذا الجذر معان ودلالات متعددة ذكرت في المعاجم. ومن هذه المعاني ما ذكره الخليل بن أحمد الفراهيدي في قوله: " وكل شيء منعته من الفساد فقد حَكَمْتَه وحَكَّمْتَه وأَحْكَمْتَهُ " والمعنى الذي أفاده الجذر (ح ك م) هو المنع من الفساد.

والعرب تقول: " حَكَمْتٌ وأَحْكَمْتُ وَحَكَّمْتُ بمعنى منعت ورددت "

قال جرير لبني حنيفة:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إنّي أخاف عليكم أن أغضبا

واستحكم فلان صار حكيما وتناهى عمّا يضرّه، واستحكم عليه الشّيء: التبس

وقد ورد من هذا الجذر أيضا كلمة حكيم. قال الليث: يقال للرجل إذا كان حكيما: قد أَحْكَمَتْهُ التّجارب." والحكيم: المتقن للأمور.

و" الحكم: الله عز وجل، وهو الحكيم. والحُكْمُ والحِكْمَةُ: العدل والحلم.

وجاء في قوله تعالى:" ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير" بمعنى أحكمت آياته بالأمر والنّهي والحلال والحرام وسائر الأحكام، ثم فصّلت بالوعد والوعيد، وقد أتقنت آياته فليس فيها خلل ولا باطل، لأنّ الفعل المحكم ما قد أتقنه فاعله حتى لا يكون فيه خلل.

والحاكم: منفّذ الحكم، والجمع حكّام. قال ثعلب عن ابن الأعرابيّ: قيل للحاكم حاكم لأنّه يمنع من الظّلم.

أمّا لفظة الحكمة فقد وردت في المعاجم على عدّة معان منها: العدل والعلم والحلم. حكمة الشّاة؛ ذقنها. وحكمة اللّجام: ما أحاط بالحنك، سمّيت كذلك لأنّها تمنعه من الجري الشّديد.

والحكمة: العلم الذي يرفع الإنسان عن فعل القبيح.

وقد وردت لفظة الحكمة في العصر العباسي بمعنى الفلسفة...يقول الشّهرستاني: ومن الفلاسفة، حكماء العرب، وهم شرذمة قليلون، لأنّ أكثر حكمهم فلتات الطّبع وخطرات الفكر.

الحكمة اصطلاحا: اسم لكلّ علم حسن وعمل صالح...وقيل هي معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة.

وجاء في كتاب التّعريفات: " كلّ كلام وافق الحقّ فهو حكمة."

وجاءت لفظة الحكمة في كتب الأدب على عدّة تعريفات منها: " قول موجز يتضمّن حكما مسلما في الحثّ على الخير، أو الكفّ عن الشرّ" أر هي " عبارة تنطوي على فكرة صائبة في ناحية من نواحي الحياة" أو هي " قول بليغ موجز صائب، يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة، ويتضمن حكما مسلما في أمر بخير أو نهي عن شرّ" والحكمة كلّ ما يتحقّق فيه الصّواب من القول أو العمل.

ومن هذا فإنّ الحكمة هي مجموعة من المواعظ والأحكام الصّادرة عن وعي وإدراك، تصدر من رجل خاض تجارب عديدة.

تاريخ شعر الحكمة عند العرب : الحكمة فن من فنون الشّعر العربيّ، يرد أبياتا ضمن القصائد، كما يأتي في قصائد مستقلة بمعانيها، وقد عرف به العربي منذ العصر الجاهليّ، لكنّه تميّز بالوفرة والكثرة في العصر العبّاسيّ.

موضوعات شعر الحكمة: تعدّدت موضوعات شعر الحكمة تعدّدا شمل معظم نواحي الحياة، فخلّف العرب حكما فكريّة وأخرى خلقية.

ومن مواضيع الحكم الفكرية نجد؛ موضوع الحياة والموت، الدّهر، الخير والشرّ، الغنى والفقر...

ومن مواضيع الحكم الخلقية نجد؛ الصّبر، الحلم والجهل، الأخوّة، الصّداقة، الشّيب والشّباب...